صفحات من أوراق جدي الصفراء .. قضاء حوائج الناس أنموذجًا

نشر في جريدة أخبار الخليج 7 أغسطس 2022

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

تصفحت ذات يوم أوراق جدي الصفراء البالية، فوجدت فيها هذه الحكاية؛

يروى أن عالمًا جليلاً ذا حكمةٍ وبصيرةٍ وذا مالٍ وجاهٍ، كان جالسًا يومًا مع تلاميذه ومريديه، وبينما هم كذلك، إذ دخل عليهم رجلٌ غريبٌ لا يعرفه أحدٌ منهم، ولا يبدو عليه مظهرُ طلابِ العلم، ولكنه بدا للوهلة الأولى كأنه عزيزُ قومٍ أذلّتهُ الحياة.

دخل وسلّم، وجلس حيث انتهى به المجلس، وأخذ يستمع للشيخ بأدبٍ وإنصات، وفي يده قارورةٌ فيها ما يشبه الماء لا تفارقه.

قطع الشيخ العالمُ حديثه، والتفت إلى الرجل الغريب، وتفرّس في وجهه، ثم سأله: ألك حاجةٌ نقضيها لك ؟ أم لك سؤال فنجيبك ؟

فقال الضيف: لا هذا ولا ذاك، وإنما أنا تاجر، سمعتُ عن علمك وخُلُقك ومروءتك، فجئتُ أبيعك هذه القارورةَ التي أقسمتُ ألّا أبيعَها إلا لمن يقدّر قيمتها، وأنت - دون ريبٍ - حقيقٌ بها وجدير.

قال الشيخ: ناولنيها.

فناوله إياها، فأخذ الشيخ يتأملها ويتفحصها ويحرك رأسه إعجابًا بها، ثم التفت إلى الضيف، فقال: بكم تبيعها ؟

قال: بمائة دينار.

فرد عليه الشيخ: هذا قليل عليها، سأعطيك مائةً وخمسين.

فقال الضيف: بل مائةٌ كاملةٌ لا تزيد ولا تنقص.

فقال الشيخ لابنه: أدخل عند أمك وأحضر منها مائةَ دينار.

وفعلاً استلم الضيف المبلغ، ومضى في حال سبيله حامدًا شاكرًا، ثم انفضَّ المجلسُ وخرج الحاضرون، وجميعهم متعجبون من هذا الماء المعجز الذي اشتراه شيخُهم بمائة دينار.

دخل الشيخ إلى مخدعه للنوم، ولكنّ الفضول دعا ولده إلى فحص القارورة ومعرفةِ ما فيها، حتى تأكد - بما لا يترك للشك مجالاً - أنه ماء عاديّ.

فدخل إلى والده مسرعًا مندهشًا وصارخًا: يا حكيم الحكماء، لقد خدعك الغريب، فو اللّه ما زاد على أن باعك ماءً عاديًا بمائة دينار، ولا أدري أأعجبُ من دهائه وخبثه، أم من طيبتك وتسرعك ؟

فابتسم الشيخ الحكيم ضاحكًا، وقال لولده:

يا بني، لقد نظرتَ ببصرك فرأيتَه ماءً عاديًّا، وهو بالفعل ماء عادي، وأما أنا، فقد نظرتُ ببصيرتي وخبرتي فرأيتُ الرجل جاء يحمل في القارورة ماءَ

وجهه الذي أَبَتْ عليه عزَّةُ نفسه أن يُريقَه أمام الحاضرين بالتذلُّل والسؤال، وكانت له حاجةٌ إلى مبلغٍ يقضي به حاجته لا يريد أكثر منه. والحمد للّه الذي وفقني لإجابته وفَهْم مراده وحِفْظِ ماء وجهه أمام الحاضرين. ولو أقسمتُ ألفَ مرّةٍ أنّ ما دفعتُه له فيه لقليل، لما حَنَثْتُ في يميني.

انتهت القصة، فطويت أوراق جدي الصفراء البالية، فذهبت أفكر في أبعاد هذه القصة والحكمة منها، وأقلب أحوال المجتمع والناس الذين يعيشون حولنا فوجدت الكثير.

في مجتمعاتنا يوجد الكثير من الناس المحتاجة إلى شيء ما، وليس بالضرورة إلى المال فقط، فالعديد من الأسر قد تحتاج إلى مد يد العون في نصيحة أو إبعاد أبنائهم من التوهان في دائرة إدمان المخدرات والعصابات أو الصحبة غير الصالحة والشوارع.

الشباب والشابات العاطلون عن العمل، بعضهم قضوا ويخيم عليهم شبح البطالة حوالي 7 سنوات منذ تخرجهم من الجامعة، هؤلاء لا يحتاجون إلى كلمات استعطاف أو التباشير التي تكتب بين صفحات الجرائد المحلية التي تبشرهم أن المستقبل وأن القادم سيكون أفضل، فهؤلاء يحتاجون إلى وظيفة وعمل، يعتاشون عليه.

العديد من الشباب العاطلين عن العمل قاموا بإنشاء أعمال منزلية خاصة بسيطة، وهؤلاء يعانون من ظروف الحياة، ومن غلاء أسعار المواد الخام،

ومن قلة الإنتاج، لذلك فإنهم في المقابل يبيعون منتجاتهم بسعر عال نوعًا ما، هؤلاء لا يحتاجون إلى صدقه بقدر حاجتهم إلى أن يمد إليهم الإنسان يده بشراء المنتج بين الفينة والأخرى حتى وإن لم يكن يحتاج إليه، لأنه يُعد من قضاء حوائج الناس وجبر الخواطر.

بعض الأسر تحتاج فقط إلى بعض الأدوات المدرسية والقرطاسية حتى تبث الأمل في نفوس الأبناء لتواصل العملية التعليمية.

بعض الأسر تحتاج إلى وجبة غداء، أو بعض الأدوية، أو طبيب يعالج والدهم الكبير في السن والذي لا يملك ثمن العلاج أو الدواء.

ومن ذلك ان بعض المسؤولين الذين يقلدون منصبًا إداريًا لخدمة الناس، إلا أنه يغلق بابه عنهم، لأنه لا يطيق التعب والإرهاق، ومنهم من يُحمل مسؤولية الرد على الخط الساخن وتوضيح الأمور للمواطنين إلا أنه لا يرد، لمجرد أنه لا يرغب في الرد، سواء كان هذا الخط الساخن خط الهاتف أو الواتساب، المهم أنه في تلك اللحظة مسؤول، وهذا المواطن لم يلجأ إلى هذا الخط إلا لحاجة، تخيل لو كان والدك أو والدتك هي المتصلة، فماذا كنت تفعل ؟

وهكذا، فالطلبات ليس واحدة والرغبات متعددة، تمتد ما بين الطلبات الكبيرة إلى بعض الطلبات الصغيرة التي تُعد تافهة عند الكثير من الناس، ومن الجدير بالذكر إن هذه الفئة من الناس لا يمدون أيديهم،

لذلك فإنهم يضعون ماء وجههم في قارورة وينتظرون أن يمر إنسان يفهم معاناتهم ويمد يديه ليشتري منهم تلك القارورة.

قضاء حوائج الناس فن واهتمام ولا يحتاج إلى الكثير من الصحافة والنشر والإعلام في وسائل التواصل الاجتماعي، فإن حفظ ماء الوجوه لا يستحق نشر حوائج هؤلاء الناس على الملأ، من أجل أن يقول الكريم أنا كريم لأني أقوم بقضاء حوائج الناس وأجبر خواطرهم، فالرسول صلى اللّه عليه وسلم يقول في الحديث الطويل عن السبعة الذين يظلهم اللّه سبحانه وتعالى في ظله يوم القيامة (ورَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقَةٍ فأَخْفَاهَا حتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ)، صحيح البخاري، فإن كان من شروط صدق العطاء وقبوله عند اللّه سبحانه وتعالى ألا تعرف اليد اليسار ماذا قدمت اليد اليمين من عطاء، فكيف بمن ينشر كل ما يفعله للناس ويقدمه لهم على الملأ عبر وسائل التواصل الاجتماعي وعلى صفحات الجرائد بطريقة أو بأخرى ؟

في تلك اللحظة توقفت عن التفكير والتأمل، ثم عدت إلى أوراق جدي البالية الصفراء لعل أجد فيها بعض الإجابات عن العديد من الأسئلة التي تزاحمت في ذهني، ولكن وقعت على قصة أخرى، إذ تقول:

يروى أنه عاش رسّام عجوز في قرية صغيرة، وكان يرسم لوحات غاية في الجمال، ويبيعها بسعر جيّد، وفي يوم من الأيام أتاه فقير من أهل القرية وقال له: أنت تكسب مالًا كثيرًا من أعمالك، فلماذا لا تساعد

الفقراء في القرية ؟ أنظر لجزار القرية الذي لا يملك مالًا كثيرًا ومع ذلك يوزّع كل يوم قطعًا من اللحم المجّانية على الفقراء، وأنظر إلى خباز القرية فعلى الرغم من أنه رجل فقير ذو عيال إلا أنه يعطي الفقراء خبزًا مجانيًا كل يوم.

لم يردّ عليه الرسام وابتسم بهدوء، فخرج الفقير منزعجًا من عند الرسّام، وأشاع في القرية أنّ الرسام الثري جدًا يكتنز الأموال ولكنّه بخيل جدًا، ولا يساعد الفقراء. فنقم عليه أهل القرية وقاطعوه وهجروه. وتمر السنون وإذ بالرسام العجوز يمرض ويصبح قعيد الفراش ولكن لم يعره أحد من أبناء القرية اهتمامًا، فمات وحيدًا.

وتمرّ الأيّام على أهل القرية، ولاحظ أهلها أنّ الجزار لم يعد يرسل للفقراء لحمًا مجّانيًا، وكذلك الخباز الشهم صار لا يمنح الفقراء خبزًا مجانيًا على الرغم من توافدهم عليه ورجاؤهم له. وعندما سألوهما عن سبب توقفهما، قالا: أنّ الرسّام العجوز كان يعطينا كل شهر مبلغًا من المال لنعطي الفقراء اللحم والخبز، وقد مات فتوقّف كل ذلك بسبب موته.

انتهت القصة، وأنا الذي كنت اعتقد أن أجد الإجابات عن أسئلتي في تلك الأوراق الصفراء إلا أن تلك القصص التي كان يحتفظ بها جدي أثارت مواجعي، فهذا هو مفهوم قضاء حوائج الناس وجبر الخواطر، ويجب أن تتم بكل هدوء وبعيدًا عن الكاميرات التي تدور وأقلام الصحفيين التي تكتب، يجب أن تتم بكل هدوء ويسر، إلا إننا اليوم نمد بيدنا اليسرى

كسرة خبز وفي يدنا اليمنى الكاميرا لنقول للعالم أجمع أنظروا فأنا تصدقت على هذا الإنسان.

وكذلك فإن المحتاج لا يحتاج أن يعلن عن نفسه وإنما الكريم هو من يذهب للبحث عنه في الأزقة والبيوت المائلة للسقوط.

ومفهوم قضاء حوائج الناس وجبر الخواطر منهج حياة في الإسلام، ففي الحديث النبوي الشريف في الصحيحين قال صلى اللّه عليه وسلم: (المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللّه فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فرَّجَ اللّه عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ).

وقال أيضًا (إِنَّ للَّهِ أَقْوَامًا اخْتَصَّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، وَيُقِرُّهَا فِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا عَنْهُمْ وَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ).

نعم هكذا بكل هدوء يمكن أن تتطاير كل أموالك وممتلكاتك إدراج الرياح، وتتحول إلى إنسان آخر في لمح البصر، تذكر كل من ذكر في التاريخ من أيام فرعون ومن كان قبله ومن كان بعده.

قضاء حوائج الناس وجبر خواطرهم، ليست نزهه أو مجرد ملهاة نلتهي بها في وقت الفراغ، إنما يجب أن تكون منهج حياة، ومنهج عمل إداري، فإن كان المرء لا يستطيع أن يقدم خدماته أو يقضي حوائج الناس على الرغم من استطاعته لذلك فإنه من الأولى أن يجلس في بيته.